أنوار من سورة الكهف

تأليف:
خلدون بن محمود بن نغوي الحقوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سورة الكهف سورة مكية.

من فضائل السورة وخصائصها:

1) أنَّ قِراءةَ سُورةِ الكَهفِ سَبَبٌ لِنُزولِ السَّكينةِ:

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما: ((قرأ رجلٌ "الكَهفَ" وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فجعَلَت تَنفِرُ، فسَلَّمَ، فإذا ضبابةٌ أو سَحابةٌ غَشِيَته، فذكَرَه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقرأْ فلانُ؛ فإنَّها السكينةُ نَزَلت للقُرآنِ، أو تنزَّلَت للقُرآنِ)). متفق عليه.

2) حِفظُ عَشرِ آياتٍ مِن أوَّلِ سورةِ الكهفِ عِصمةٌ مِن الدجَّالِ:

عن النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال صلَّى الله عليه وسلَّم –في سياق الكلام عن المسيح الدجال: ((فمَن أدْرَكه منكم؛ فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكَهفِ). صحيح مسلم.

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ). صحيح مسلم.

3) أنها من السُّورِ العَتيقةِ، ومن قديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: (سورةُ بني إسرائيل والكهف، ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِن تِلادي). صحيح البخاري.

ومعنى: "العِتاق الأُوَل": أي: السُّوَر التي أُنزِلت أوَّلًا بمكةَ.

"وهُنَّ مِن تِلادي": أي: مِن أوَّل ما أخذْتُه وتعلَّمْتُه بمكةَ.

4) أنَّها كُلَّها مُحكَمةٌ؛ فليس فيها آية منسوخة.

مِن أهَمِّ موضوعات السورة:

1) حَمْدُ اللهِ تعالى على إنزالِه الكتابَ على عَبدِه؛ وأنَّه قيِّمٌ لا عوجَ فيه، يعني لا تناقض فيه.

2) أنَّ ما على ظهرِ الأرضِ هو زينةٌ لها؛ جعَله الله اختبارًا وابتلاءً.

3) ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ.

4) ذِكرُ فِتنةِ المالِ بذِكرِ خَبَرِ قِصَّةِ صاحِبِ الجنَّتَينِ.

5) ضَربُ المَثَلِ للحياةِ الدُّنيا بما يدُلُّ على فَنائِها وذَهابِ زُخرُفِها.

6) ذِكرُ شَيءٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ.

7) بيانُ عَداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِه، وفِسقِه عن أمرِ رَبِّه.

8) بيانُ سُنَّةِ اللهِ في إهلاكِ الظَّالمينَ.

9) قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ مع الخَضِرِ.

10) قِصَّةُ ذي القَرنَينِ.

المقطع الأول من سورة الكهف

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)}

تفسير العلّامة السعدي:

الحمد لله: هو الثناء عليه بصفاته؛ التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجَلُّ نِعَمِه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم.

ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه: وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قَيِّمٌ مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبر ولا يأمر إلا بأَجَلِّ الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس، وتطهرها وتنميها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد اللهُ نفسَه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به. وقوله: {لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ} أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابَه الذي عنده، أي: قدَّرَه وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضا من نعمه: أن خَوَّفَ عبادَه،

وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى -لما ذكر في هذا القرآن وصفَ النار- قال: {ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون} فمن رحمته بعباده أن قَيَّضَ [هيَّأ] العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبيَّنها لهم، وبيَّن لهم الأسبابَ الموصلة إليها.

{وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} أي: وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين ب، وبرسله وكتبه، الذين كَمُلَ إيمانُهم، فأوجب لهم عمل الصالحات -وهي: الأعمال الصالحة من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة-، {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} وهو الثواب الذي رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمُه وأجَلُّه: الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مُكَدِّرَ فيه ولا مُنَغِّصَ بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه تاما.

ومع ذلك؛ فهذا الأجر الحسن {مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكرَ الأعمال الموجبة للمبشَّر به؛ وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح. {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} من اليهود والنصارى والمشركين؛ الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟! {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} ولهذا قال هنا: {إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} أي: كذبا محضا؛ ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولا: أنه {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ} والقول على الله بلا علم؛ لا شك

في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانيا أنه قول قبيح شنيع فقال: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، ثم ذكر ثالثا مرتبته من القبح، وهو: الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الخلق؛ ساعيا في ذلك أعظم السعي؛ فكان صلى الله عليه وسلم يفرح ويُسَرُّ بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين –شفقة منه صلى الله عليه وسلم عليهم، ورحمة بهم–؛ أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: {لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين} وقال: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} وهنا قال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: مُهْلِكُها غما وأسفا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار؛ فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا. فإشغالك نفسك غما وأسفا عليهم ليس فيه فائدة لك.

من هدايات الآيات الكريمة:

- قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} هو خبرٌ مِن اللهِ عن نفْسِه؛ وهو إرشادٌ لنا أنْ نَحمدَ اللهَ على ذلك.
- قولُه تعالى: {الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} يفيدُ أنه لا بدَّ مع الإيمان مِن العملِ الصالحِ، فلا يكفي الإيمانُ وحده! بل لا بد مِن عملٍ صالحٍ، ولهذا قيل لبعض السلف: أليس مِفتاحُ الجنَّة: لا إله إلاَّ الله؟ يعني: فمَن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكنْ هل يَفتحُ المِفتاحُ بلا أسنان؟؟
- في قوله تعالى: {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} سمَّى اللهُ عزّ وجلّ ثوابَ الأعمال أجرًا لأنها في مقابلة العمل، وهذا مِن عَدْلِهِ جلَّ وعلا أنْ يسميَ الثوابَ الذي يُثيبُ به الطائعَ أجرًا حتى يطمئنَ الإنسانُ لضمان هذا الثواب، لأنه معروفٌ أنّ الأجيرَ إذا قام بعمله؛ فإنه يستحقُّ الأجرَ.
- في قوله تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} دلالةٌ على أنّ لَفْظَ "كلمة" في الكتاب والسُّنّة – بل وفي كلام العرب– إنما يُرادُ به الجملة المفيدة التامة، وهذا كقَولِه تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: 64] ، والكلمة هذه هي "شهادة أن لا إله إلا الله".

❖ قَولُ الله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} في هذه الآيةِ ونَحوِها عِبرةٌ؛ فإنَّ الداعيةَ مأمورٌ بدُعاءِ الخَلقِ إلى اللهِ، فعليه التَّبليغُ والسَّعيُ بكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى الهِدايةِ، وسَدِّ طُرُقِ الضَّلالِ والغَوايةِ بغايةِ ما يُمكِنُه، مع التوكُّلِ على اللهِ في ذلك؛ فإن اهتَدَوا فبها ونِعْمَتْ، وإلَّا فلا يَحزَنْ ولا يأسَفْ؛ فإنَّ ذلك مُضعِفٌ للنَّفسِ، وهادِمٌ للقُوَى، وليس فيه فائِدةٌ.

المقطع الثاني من سورة الكهف

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر تعالى أنه جعل جميعَ ما على وجه الأرض من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها؛ الجميعَ جعله الله زينةً لهذه الدار فتنةً واختبارا، { لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة، وزائلة منقضية. وستعود الأرض صعيدا جرزا قد ذهبتْ لذَّاتُها، وانقطعت أنهارها، واندرست أثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جَلَّاها الله لنا كأنها رأيُ عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترَّ بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها! فصحبوا الدنيا صحبةَ البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت قَلِقَ لخراب ذاته، وفوات لذَّاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات. وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنه يتناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصةَ في عمره الشريف فجعل الدنيا منزلَ عبور، لا محل حُبُور! وشُقَّة سفر، لا منزل إقامة! فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيقٌ منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا ؛حين نظر المغترُّ إلى ظاهرها! وعمل لآخرته؛ حين عمل البطَّال لدنياه! فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} دلالةٌ على أنّ العطاء والمال قد يكونُ فتنةً.

❖ في قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} دلالةٌ على أنه سبحانه وتعالى إنما خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وخَلَقَ الموتَ والحياةَ وزيَّنَ الأرضَ بما عليها لابتلاءِ عبادِه وامتحانِهم، ليَعْلَمَ مَن يريدُه ويريدُ ما عنده؛ ممن يريدُ الدنيا وزينتَها.

❖ في قوله تعالى: {أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} لم يقلْ سبحانه: "أكثرُ عملًا"! لأنّ العبرةَ بالأحسنِ لا بالأكثرِ، وعلى هذا لو صلى الإنسانُ أربعَ ركعاتٍ -لكنْ على يقينٍ ضعيفٍ أو على إخلالٍ باتّبَاع الشرع-؛ وصلى رجل آخرُ ركعتين بيقين قويٍّ ومتابعةٍ قويةٍ؛ فأيّهما أحسنُ؟ الثاني بلا شك؛ أحسنُ وأفضلُ، لأنّ العبرةَ بإحسانِ العملِ وإتقانِه -إخلاصًا ومتابعةً-.

❖ قولُه تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} فيه إشارةٌ إلى التَّزهيدِ في الدُّنيا والرَّغبةِ عنها، وتَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا تَضمَّنَته أيدي المُتْرَفينَ من زينتِها؛ إذ مآلُ ذلك كلِّه إلى الفَناءِ.

❖ قال الإمام المشهور الفضيلُ بنُ عياضٍ: {أَحْسَنُ عَمَلًا} يعني: أخلصُه وأصوبُه، والخالصُ: أن يكونَ لله، والصوابُ: أن يكونَ على السنةِ.

❖ وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدَعةٍ! وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

المقطع الثالث من سورة الكهف

{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)}

تفسير العلّامة السعدي:

هذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبةٌ على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظيرَ لها، ولا مجانس لها!! بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عبادَه من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب! بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسَها كثيرٌ جدا، فالوقوفُ معها وحدها في مقام العجب والاستغراب: نقصٌ في العلم والعقل، بل وظيفةُ المؤمن التفكرُ بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها؛ فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم الله إلى الكهف –الذي هو الغار في الجبل–، وإلى الرقيم، أي: الكتاب الذي قد رُقِمَتْ [يعني نقشت] فيه أسماؤهم وقصتهم؛ لملازمتهم له دهرا طويلا.

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصَّلَها بعد ذلك فقال: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ} أي: الشباب، {إِلَى الْكَهْفِ} يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، {فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً} أي تُثَبِّتُنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير {وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} أي: يَسِّرْ لنا كلَّ سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا. فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه؛ وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسيرَ أمورهم، وعدمِ اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب اللهُ دعاءهم،

وقيَّض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ} أي أنمناهم { سِنِينَ عَدَدًا} وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظٌ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظٌ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

{ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} أي: من نومهم {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ} الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبْط للحساب، ومعرفةٌ لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم لم يحصلِ الاطلاعُ على شيء من ذلك من قصتهم!

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} سمّى اللهُ الاستيقاظَ مِن النوم بَعْثًا؛ لأنّ النومَ وفاةٌ.
- قال الله تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} هذه الآيةُ ترشد إلى الفِرارِ بالدِّينِ، وهِجرةِ الأهلِ والبَنينَ والقَراباتِ والأصدقاءِ والأوطانِ والأموالِ؛ خَوفَ الفِتنةِ وما يَلقاه الإنسانُ مِن المِحنةِ في الدين، وقد خرج النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فارًّا بدِينِه وكذلك أصحابُه، وجلس في الغارِ –غار ثور–، ثم وصل المدينة المنورة، وهكذا كان مهاجرا إلى أن نصره الله تعالى على أعدائه، وأعلى كلمته.
- قَولُ الله تعالى: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} فيه دَليلٌ على وجود الكَراماتِ، فإنَّ بقاءَهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ بلا ضرر عليهم هو مِنْ أعظمِ الخوارقِ للعادات.
- قولُه تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} المقصودُ من هذه القِصَّةِ إثباتُ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فكان في ذِكْرِ لفظِ (البَعثِ) تَنبيهٌ على أنَّ في هذه الإفاقةِ دليلًا على إمكانِ البَعثِ.

المقطع الرابع من سورة الكهف

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)}

تفسير العلّامة السعدي:

هذا شروع في تفصيل قصتهم؛ وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى -الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح-، كما قال تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}.

{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} أي صبَّرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات والطمأنينة.

{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: {لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا} أي: من سائر المخلوقات {لَقَدْ قُلْنَا إِذًا} أي: إن دعونا معه آلهة بعد ما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له، {شَطَطًا} أي: ميلا عظيما عن الحق، وطريقا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} لما ذكروا ما مَنَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى، والتفتوا إلى ما كان

عليه قومهم –من اتخاذ الآلهة من دون الله–؛ فمقتوهم، وبيَّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمْرِهم، بل في غاية الجهل والضلال فقالوا: {لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ} أي: بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} دلالةٌ على زيادة الإيمان ونقصانه. ويُفَسَّرُ هذا الهدى بأمور:

1– ما في القلوب مِن الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك.

2– زيادة ما يَترتبُ على ذلك مِن الأعمال الصالحة –الأعمال القلبية (كالمحبة والخشية والتوكل)، والأعمال البدنية (كالصلاة والزكاة والجهاد).

❖ {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ مَن آمَنَ برَبِّه وأطاعَه؛ زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِن الهُدى والإيمانِ.

❖ {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} يُفهَمُ منها أنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةُ بعدَها.

❖ في قوله تعالى: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} أنَّ المؤمنَ أحوجُ شيءٍ إلى أن يربِطَ اللهُ على قلبِه، ولولا ذلك الربطُ لافتتن الفتية.

❖ قَولُ الله تعالى: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ} هذا مِن جُموعِ القِلَّةِ (فلم يقل: إنهم فتيان!)، ويدُلُّ على أنَّهم كانوا دونَ العَشرةِ.

المقطع الخامس من سورة الكهف

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)}

تفسير العلّامة السعدي:

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} أي: قال بعضهم لبعض ذلك، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم، وهم على غير دينهم. {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ} أي: انضموا إليه واختفوا فيه {يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا} وفيما تقدم أخبر أنهم دَعَوه بقولهم: {ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا} فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانَهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلْقِه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو مِن رحمته بهم، ويَسَّرَ لهم كل سبب؛ حتى المحلَّ الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي: حفظهم الله من الشمس فيَسَّر لهم غارا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالا، فلا ينالهم حَرُّها فتفسد أبدانهم بها، {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصا مع طول المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته

بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارَين، {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا رادَّ لحكمه.

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينَهم منفتحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظا وهم رقود! {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ} وهذا أيضا من حِفْظِه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله أن قلَّبهم على جنوبهم يمينا وشمالا بقدر ما لا تفسد الأرضُ أجسامَهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب ولكنه تعالى حكيم؛ أراد أن تجري سُنَّتُه في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

{وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف؛ أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطا ذراعيه بالوصيد، أي: الباب –أو فنائه–، هذا حِفْظُهم من الأرض، وأما حِفْظُهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد لامتلأ قلْبُه رعبا، وولى منهم فرارا، وهذا الذي أوجب أن يَبقوا كلَّ هذه المدة الطويلة وهم لم يَعثر عليهم أحدٌ؛ مع قُرْبهم من المدينة جدا! والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدَهم يشتري لهم طعاما من المدينة، وبقوا في انتظاره؛ فدلَّ ذلك على شدة قربهم منها.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} إرشادٌ إلى الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في هداية الأولاد وتأديبهم؛ فإنّ اللهَ تعالى هو الهادي -سبحانه وبحمده-، وعلى هذا فالذي يُنَظِّمُ نسْلَه أو يُجَدِّدُه خوفًا مِن عدم القدرة على تأديبهم هو مسيءُ الظن بربه تبارك وتعالى، وإلّا فالله سبحانه وتعالى بيده الأمور.

❖ في قوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} بيان ان الهداية والإضلال بيد الله، لذلك نحن نطلب الهداية منه سبحانه، وأيضًا نتعوذ به من الضلال.

❖ في قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ} دليلٌ على أنّ فِعْلَ النائمِ لا يُنْسَبُ إليه، ووجهُ الدلالة: أنّ اللهَ أضاف تقلُّبَهم إليه، فلو أنّ النائمَ قال في نومه: "امرأتي طالقٌ" أو "في ذمتي لفلان ألفُ ريال" لم يثبتْ، لأنه لا قَصْدَ له ولا إرادةَ له -لا في القولِ ولا في الفعلِ-.

❖ قال الله تعالى: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} فيه إرشاد إلى أن المشروعَ عند وُقوعِ الفِتَنِ في النَّاسِ؛ أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه.

❖ كما جاء في الصحيحين: ((يُوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ [شَعَفَ الجبالِ: أي: رُؤوسَها وأطرافَها] ومواقِعَ القَطْرِ [يعني: بُطونَ الأوديةِ] مَواقِعَ القَطرِ؛ يَفِرُّ بدِينِه مِن الفِتنِ)).

❖ في قَولِه تعالى: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} دليلٌ على جوازِ اتِّخاذِ الكَلبِ لحراسةِ الآدميّين، أمَّا حراسةُ الماشيةِ وحراسةُ الحرثِ؛ فقد جاءَت به السنةُ.

المقطع السادس من سورة الكهف

{وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَـــاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْـــعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)}

تفسير العلّامة السعدي:

يقول تعالى: {وكذلك بعثناهم} أي: من نومهم الطويل {ليتســـاءلوا بينهم} أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم،{قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم فلهذا {قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} فردوا العلم إلى الله المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلا، ولعل الله تعالى –بعد ذلك– أطلعهم على مدة لبثهم لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخرَ أمرهم الاشتباهُ، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينا، وقد ذكر فيما ســـيأتي: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّـاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا}، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم وجرى منهم ما أخبر الله به أرسلوا أحدَهم بورقهم – أي: بالدراهم التي كانت معهم– ليشـــتري لهم طعاما يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذه، وأن يتلطف في ذهابه وشـــرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه {ولا يشـعرن بهم أحدا}، وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم؛ أنهم بين أمرين: إما الرجم بالحجارة؛ فيقتلونهم أشـنع قتلة! بسـبب غيظهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا يفلحون أبدا، بل يخســـرون دينهم ودنياهم وأخراهم.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} فيه الأدَبُ فيمن اشتَبَه عليه العِلمُ؛ أن يَرُدَّه إلى عالِمِه، وأن يَقِفَ عند حَدِّه.

❖ قَولُ الله تعالى: {وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْـــعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} فيه دَليلٌ على أخْذِ الحَذَرِ مِن الأعداءِ بكُلِّ وسيلةٍ مباحة.

❖ قَولُه تعالى: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} فيه دليلٌ على صحةِ الوكالةِ في البيعِ والشراءِ.

❖ إنْ قيل: أليس أنَّهم لو أُكرِهوا على الكفرِ حتى أظهَروا الكفرَ لم يكنْ عليهم مضـــرَّةٌ؛ فكيفَ قالوا: {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} مع أنهم مكرهون؟

❖ والجواب من وجهين:

1- أنَّهم خافوا أنَّهم لو بَقُوا على الكفرِ مُظهرينَ له؛ فقد يميلُ بهم ذلك إلى الكفرِ الحقيقيّ، فكان خوفُهم بسببِ هذا الاحتمالِ

2- إنَّ العُذرَ بالإكراهِ هو مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ، ولم يكن موجودًا في الأمم السابقة.

❖ في قوله تعالى – عن الفتية –: {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} دلالةٌ على أنّه لا بأس على الإنسان أنْ يشتري ويختار أطيبَ الطعام.

المقطع السابع من سورة الكهف

{وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر الله تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك –والله أعلم– بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاما، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرا فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعدَ الله حقٌّ لا شك فيه ولا مرية ولا بُعد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمِن مُثبت للوعد والجزاء، ومِن نافٍ لذلك، فجعل قصتهم زيادةَ بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجرُ هذه القضية، وشَهَرَ اللهُ أمْرَهم، ورفع قدْرَهم حتى عَظَّمهم الذين اطلعوا عليهم. {فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا} الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال مَن غلب على أمرهم –وهم الذين لهم الأمر– : {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة؛ نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وذمَّ فاعليها [يعني: بناء المساجد على القبور]، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها! فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت

بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحَذَرِهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

{سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدد أصحاب الكهف؛ اختلافا صادرا عن رجمهم بالغيب، وتقوُّلِهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: ثلاثة؛ رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة؛ سادسهم كلبهم. وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدلَّ على بطلانهما.

ومنهم من يقول: سبعة؛ وثامنهم كلبهم، وهذا -والله أعلم- الصوابُ، لأن اللهَ أبطل الأوَّلَين ولم يبطل [هذا الأخير]؛ فدل على صحته. و[عموما] هذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحةٌ للناس؛ لا دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم، {فَلَا تُمَارِ} أي: تجادل وتحاجَّ {فيهم إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: مبنيا على العلم واليقين، ويكون أيضا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة فيها؛ إما أن يكون الخصمُ معاندا، أو تكون المسألةُ لا أهميةَ فيها، ولا تحصل فائدةٌ دينية بمعرفتها -كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك-؛ فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعا للزمان، وتأثيرا في مودة القلوب بغير فائدة.

{وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ} أي: في شأن أهل الكهف {مِنْهُمْ} أي: من أهل الكتاب {أَحَدًا} وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن؛ الذي لا يغني من الحق شيئا، ففيها دليل على المنع من استفتاء مَن لا يصلح للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيُه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى. وفي الآية أيضا دليل على أن الشخص قد يكون منهيا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيُستفتى فيما

هو أهلٌ له، بخلاف غيره، لأن الله لم يَنْهَ عن استفتائهم مطلقا! إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} هذا النهي كغيره؛ وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول صل الله عليه وسلم؛ فإن الخطابَ عامٌّ للمكلَّفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة: {إني فاعل ذلك} من دون أن يقرنه بمشيئة الله! وذلك لما فيه من المحذور، وهو: الكلام على الغيب المستقبل الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه ردُّ الفعل إلى مشيئة العبد استقلالا! وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين}، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه. ولما كان العبد بشرا لا بد أن يسهو فيترك ذكر المشيئة؛ أمَرَه اللهُ أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر، ليحصل المطلوب، وينتفي المحذور.

ويؤخذ من عموم قوله: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} الأمرُ بذكر الله عند النسيان؛ فإنه يزيله، ويذكر العبدُ ما سها عنه، وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكونن من الغافلين. ولما كان العبدُ مفتقرا إلى الله في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره الله أن يقول: {عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} فأمره أن يدعوَ الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وحري بعبد تكون هذه حاله ثم يبذل جهده ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد: أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

{وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} ثم لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم عِلْمِهم بذلك، وكان اللهُ عالمُ الغيب والشهادة؛ العالمُ بكل شيء: أخبره بمدة لبثهم، وأن عِلْم ذلك عنده وحده؛ فإنه من غيب السماوات

والأرض وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها على ألسنة رسله فهو الحق اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه؛ فإن أحدا من الخلق لا يعلمه!

وقوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} تَعَجُّبٌ من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالوَلاية العامة والخاصة؛ فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: {مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ} أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه ولم يَكِلْهم إلى أحد من الخَلْق.

{وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني؛ فإنه الحاكم في خلْقِه قضاء وقدرا وخلقا وتدبيرا، و[أيضًا] الحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

من هدايات الآيات الكريمة:

- الخُلَاصةُ التي تُستخلصُ مِن قصةِ أهل الكهف هي: أنّ كلَّ مَنِ التجأَ إلى الله عزّ وجلّ؛ فإنّ اللهَ تعالى يحميه بأسبابٍ قد يُدركُها وقد لا يُدركُها، وهو مصداقُ قولِه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: 38]، فإنّ مدافعةَ اللهِ عن المؤمنين قد تكونُ بأسبابٍ معلومةٍ؛ وقد تكون بأسبابٍ مجهولةٍ لهم.
- في قوله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} إشارةٌ إلى أنّ ما لا فائدةَ للجدال فيه؛ لا ينبغي للإنسان أنْ يُتْعِبَ قلبَه في الجدال به.
- في قوله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} دلالةٌ على أنّ ما لا خيرَ فيه؛ فلا ينبغي التعمقُ فيه.
- في قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} إشارةٌ إلى أنّ الإنسانَ لا ينبغي له أنْ يستفتيَ مَن ليس أهلًا للإفتاء –حتى وإنْ زعم أنّ عندَه علمًا–؛ فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلًا.

❖ في قوله تعالى: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} إرشادٌ إلى الإيمان بأنّ اللهَ تعالى ذو بصرٍ نافذٍ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وذو سمعٍ ثاقبٍ لا يخفى عليه شيءٌ، والإيمانُ بذلك يقتضي للإنسان ألَّا يُري ربَّه ما يكرهه؛ ولا يُسمعُه ما يكرهه.

❖ في قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} دلالةٌ على أنّ مِن أسبابِ بناءِ المساجدِ على القبور الغلوُّ في أصحاب القبور؛ لأنّ الذين غَلَبُوا على أمرهم بنوا عليهم المساجدَ؛ لأنهم صاروا عندهم مَحَلَّ الاحترامِ والإكرامِ فغلَوا فيهم [والغلو محرم].

❖ قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} يستفيدُ منه الإنسانُ فائدتين عظيمتين؛ إحداهما: أنّ اللهَ يُيَسِّرُ الأمرَ له؛ حيث فوَّضَه إليه جلَّ وعلا، والثانيةُ: إنْ لم يَفْعَلْ لم يَحْنَثْ، لذلك فلا يلزمه كفارة للحلف.

❖ الفائدةُ مِن أَمْرِ اللهِ تعالى أنْ نذكرَه إذا نَسينا هو ارتفاعُ الإثم، لأنّ اللهَ تعالى قال: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} فإذا نسيتَ؛ فقُلْها إذا ذكرتَ. لكنْ هل تنفعُك فلا تَحْنَثُ؟ أم فقط يرتفعُ عنك الإثمُ وليس الحنث باليمين؟ الظاهرُ: الثاني؛ أنْ يرتفعَ الإثمُ، وأما الحِنْثُ؛ فإنه يَحْنَثُ لو خالفَ، لأنّ الاستثناءَ بالنسبة للحِنْث ينبغي أنْ يكونَ متصلًا.

❖ قَولُ الله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على أنَّ مَن فَرَّ بدِينِه مِن الفِتَنِ؛ سَلَّمَه اللهُ منها، وأنَّ مَن حَرَص على العافيةِ عافاه الله، ومَن أوى إلى الله آواه الله، وجعلَه هدايةً لغيرِه، ومن تحمَّلَ الذُّلَّ في سبيلِه وابتغاءَ مَرضاتِه؛ كان آخِرَ أمْرِه وعاقِبَتَه العِزُّ العظيمُ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، فالخوفُ العظيمُ مِن أهلِ الكَهفِ وقتَ إيمانِهم ودخولِهم في الغارِ؛ أبدلهم الله به بعدَ ذلك أمنًا وتعظيمًا مِن الخلقِ، وهذه عوائدُ الله فيمن تحمَّلَ المشاقَّ مِن أجلِه: أن يجعَلَ له العاقِبةَ الحَميدةَ.

❖ اتخاذُ القبورِ مساجدَ ليس هو مِن شريعةِ الإسلامِ، بل مِن عملِ اليهودِ والنصارى، وقد لعَنهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم على ذلك، وقال تعالى: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا}

فجعَل اتِّخاذَ المساجِدِ على القُبورِ مِن فِعْلِ أهلِ الغَلَبةِ على الأمورِ، وذلك يُشْعِرُ بأنَّ مُستَنَدَه القَهْرُ والغَلَبةُ واتِّباعُ الهوى، وأنَّه ليس مِن فِعْلِ أهلِ العِلمِ والفَضلِ المُتَّبِعينَ لِمَا أنزلَ اللهُ على رُسُلِه مِن الهُدى.

- قَولُ الله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} فيه تحريمُ الجِدالِ بغَيرِ عِلمٍ وبلا حُجَّةٍ ظاهرةٍ.
- قولُ الله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} فيه دليل واضح على أن أفعال العباد كلها متعلقة بمشيئة الله.
- قَولُ الله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} فيه استِحبابُ تَقديمِ المَشيئةِ في كُلِّ شَيءٍ، فتقول: أنا ذاهبٌ إن شاء الله، وسأفعل كذا وكذا إن شاء الله، وهكذا.

المقطع الثامن من سورة الكهف

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)}

تفسير العلّامة السعدي:

لما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض فليس لمخلوق إليها طريق إلا عن الطريق التي يخبر بها عباده [وهو الوحي] وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه فقال: {وَاتْلُ} والتلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه؛ فإنه الكتاب الجليل الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا}، فلِتَمامها استحال عليها التغييرُ والتبديل، فلو كانت ناقصة لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيمٌ للقرآن، وفي ضمنه الترغيبُ على الإقبال عليه.

{وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذا تعوذ به، فإذا تَعَيَّن أنه وحده الملجأُ في كل الأمور؛ تعَيَّن أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء؛ المفتقَر إليه في جميع الأحوال، المسئول في جميع المطالب.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ} يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم –وغيرُه أسوته– في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين {الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} أي: أولَ النهار وآخره

يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى، {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} أي: لا تجاوزهم بصرَك، ولا ترفع عنهم نظرك، {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا؛ فتصير الأفكار والهواجس فيها! وتزول من القلب الرغبةُ في الآخرة، فإن زينةَ الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل؛ فيغفل القلبُ عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقتُه، وينفرط أمرُه، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا} غَفَل عن الله؛ فعاقبه بأن أغفله عن ذِكْرِه {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} أي: صار تبعا لهواه؛ حيث ما اشتهت نفسُه فعله وسعى في إدراكه ولو كان فيه هلاكُه وخسرانه! فهو قد اتخذ إلهَه هواه، كما قال تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم} الآية، {وَكَانَ أَمْرُهُ} أي: مصالح دينه ودنياه {فُرُطًا} أي: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إماما للناس؛ مَنِ امتلأ قلبُه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، واتَّبَعَ مراضيَ ربه فقَدَّمَها على هواه فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحوالُه، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما مَنَّ اللهُ به عليه، فحقيقٌ بذلك أنْ يُتَّبَع ويُجعل إماما.

والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله –الذي هو أعلى أنواع الصبر–، وبتمامه تتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحبابُ الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكلُّ فِعل مدحَ اللهُ فاعلَه؛ دلَّ ذلك على أنَّ اللهَ يحبه، وإذا كان يحبه؛ فإنه يأمرُ به، ويُرَغِّبُ فيه. {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ} أي: قل للناس يا محمد: هو الحق من ربكم أي: قد تبين الهدى من الضلال،

والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بيَّنه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئةً بها يَقْدِرُ على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمَن آمن فقد وُفِّقَ للصواب، ومَن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكرَه على الإيمان، كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}.

وليس في قوله: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} الإذنُ في كلا الأمرين!! وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها تركُ قتالِ الكافرين! ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ} بالكفر والفسوق والعصيان {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} أي: سُورها المحيطُ بها، فليس لهم مَنفذ ولا طريق ولا مَخلص منها، تصلاهم النار الحامية، {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا} أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد {يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ} أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت؛ من شدة حرارته، {يَشْوِي الْوُجُوهَ} أي: فكيف بالأمعاء والبطون؟؟ كما قال تعالى: {يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد}، {بِئْسَ الشَّرَابُ} الذي يُراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم وشدة عقابهم، {وَسَاءَتْ} النار {مُرْتَفَقًا} وهذا ذمٌّ لحالة النار؛ أنها ساءت المحل الذي يُرتفق به، فإنها ليست فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُفَتَّرُ عنهم ساعةً، وهم فيه مبلسون قد أيسوا مِن كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} دلالةٌ على أنّ مجالسةَ الصالحين مفضلة على مجالس غيرِهم، وبيانُ فَضْلِ الاجتماعِ على الذِّكْرِ والدعاءِ، وفيها فَضْلُ الإخلاصِ، وأنّ الإخلاصَ هو الذي عليه مدارُ كلِّ شيءٍ.

❖ في قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} دلالةٌ على أنّ ذِكْرَ اللهِ عزّ وجلّ النافع هو ذِكْرُ القلبِ، وأمّا ذِكْرُ اللسانِ مجرّدًا عن ذِكْرِ القلب؛ فإنه ناقصٌ، فلم يقلْ سبحانه: "مَن أمسكنا لسانَه عن ذكرنا"! قال: {مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}، فالذِّكْرُ النافعُ هو ذِكْرُ القلب.

❖ في قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} بيانُ أنه سبحانه نهى عن طاعة مَن جَمَعَ هذه الصفاتِ، فينبغي للرجل أنْ يَنظرَ في شيخه وقدوته ومتبوعه؛ فإنْ وجده كذلك فليَبْعُدْ منه، وإنْ وجده ممن غَلَبَ عليه ذِكْرُ الله تعالى واتِّبَاعُ السّنّةِ، وأمْرُه غيرُ مفروطٍ عليه! بل هو حازمٌ في أمْرِه؛ فلْيَقْتَدِ به.

❖ في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} دلالةٌ إلى أنّ الدعاءَ بالغداة [أول النهار] والعشي [آخر النهار] أفضلُ وأَجْدَرُ بالإجابة.

❖ في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} دلالةٌ على أنّ استبدالَ مجالسةِ صالحي الفقراءِ بطالحي الأغنياء معصيةٌ –وإنْ لم يعملِ المُسْتَبْدِلُ بأعمالهم–.

❖ في قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا} دلالة على أن الهداية والتوفيق؛ والإضلال والإغفال هو بيد الله تعالى، ولذلك يجب طلب الهداية من الله، والتعوذ به من الضلال والغفلة عن الذكر.

❖ قال الله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} في الآيةِ إثباتُ صفة الوَجهِ لله تعالى، وقد أجمعَ سلَفُ الأمَّةِ وعُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ على ثُبوتِ صفة الوَجهِ لله تعالى بدَلالةِ الكِتابِ والسُّنةِ على ذلك؛ كما قال الله تعالى أيضًا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27].

❖ قَولُ الله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى لا ينتَفِعُ بإيمانِ المؤمنينَ ولا يستَضِرُّ بكُفرِ الكافرينَ! بل نَفعُ الإيمانِ يعودُ إليهم، وضرَرُ الكُفرِ يَعودُ عليهم، كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}.

المقطع التاسع من سورة الكهف

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)}

تفسير العلّامة السعدي:

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ [مع] عمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} وإحسان العمل: أن يريد العبدُ العملَ لوجه الله؛ متبعا في ذلك شرعَ الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين ويوفيهم من الأجر بحسب عملهم وفضْلِه وإحسانه.

وذَكَرَ أجرَهم بقوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم الجنات العاليات التي قد كَثُرَتْ أشجارها فأَجَنَّت [سترت وأخفت] مَن فيها، وكثرت أنهارها فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتُهم فيها الذهبُ، ولباسُهم فيها الحريرُ الأخضر من السندس -وهو الغليظ من الديباج-، والإستبرق -وهو ما رَقَّ منه-، {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} وهي السُّرُر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة؛ فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يَسعون عليهم بما يشتهون، وتمامُ ذلك الخلودُ الدائم والإقامة الأبدية.

فهذه الدار الجليلة {نِعْمَ الثَّوَابُ} للعاملين {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحَبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأيُّ مرتفق أحسنُ مِن دارٍ أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم؟! قد أُعطي جميعَ أمانيه ومطالبه، وزِيد من المطالب ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمُهم على الدوام متزايدٌ في أوصافه وحسنه، فنسأل اللهَ الكريم أنْ لا يحرمنا خيرَ ما عنده مِن الإحسان بشرِّ ما عندنا مِن التقصير والعصيان.

من هدايات الآيات الكريمة:

- قَولُ الله تعالى: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ} يدلُّ على أنَّ الحِليةَ في الجنةِ عامَّةٌ للذُّكورِ والإناثِ؛ لأنَّه أطلَقَها في قَولِه: يُحَلَّوْنَ، وكذلك الحريرُ ونَحوُه.
- قال الله تعالى: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} السُّندُسُ والإستبرقُ نوعانِ مِن الحريرِ، وأحسَنُ الألوانِ الأخضَرُ، وألينُ اللباسِ الحريرُ؛ فجمَعَ لهم بين حُسنِ مَنظَرِ اللِّباسِ والْتذاذِ العَينِ به؛ وبين نُعومتِه والتذاذِ الجِسمِ به.

المقطع العاشر من سورة الكهف

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34)}

تفسير العلّامة السعدي:

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: اضرب للناس مثل هذين الرجلين؛ الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس لمعرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدةٌ أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف، فأحد هذين الرجلين –الكافر لنعمة الله الجليلة– جعل الله له جنتين، أي: بستانين حسنين، من أعناب، {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ} أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصا أشرف الأشجار –العنب والنخل–، فالعنب في وسطها، والنخل قد حفَّ بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعا، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفا {و} أنها {لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة كثيرة غزيرة. {وَكَانَ لَهُ} أي: لذلك الرجل {ثَمَرٌ} أي: عظيم كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جناته ثمارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن – وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات [الحوارات حول ما يجري] المعتادة–، مفتخرا عليه: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} فخر بكثرة ماله، وعزة أنصـــاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية؟! وإنما هو بمنزله فخر الصبي بالأماني التي لا حقائق تحتها.

المقطع الحادي عشر من سورة الكهف

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)}

تفسير العلّامة السعدي:

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه حتى حكم -بجهله وظلمه- وظن لما دخل جنته، فـ {قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ} أي: تنقطع وتضمحل {هَذِهِ أَبَدًا} فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي} على ضرب المثل {لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} أي ليعطيني خيرا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال؛ فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادةُ كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة؛ فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة؟! بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى يدل على تمرده وعناده. {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ} أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحا له، ومذكرا له حالَه الأُولى التي أوجده الله فيها في الدنيا {مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} فهو الذي أنعم عليك

بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور حتى سواك رجلا، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، ويسر لك الأسباب، وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا؛ فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك! بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟! وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك! وإنْ بعثك أنه يعطيك خيرا من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبُه المؤمن حالَه واستمراره على كفره وطغيانه؛ قال مخبرا عن نفسه على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} فأقرَّ بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزام طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحدا من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام –ولو مع قلة ماله وولده– أنها هي النعمة الحقيقية، وأنَّ ما عداها معرضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال: {إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا} أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت –وإن فخرت عليَّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقلَّ منك مالا وولدا– فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يُرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون، {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا} أي: على جنتك التي طغيت بها وغرَّتك {حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} أي: عذابا، بمطر عظيم أو غيره، {فَتُصْبِحَ} بسبب ذلك {صَعِيدًا زَلَقًا} أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا} الذي مادتها منه {غَوْرًا} أي: غائرا في الأرض {فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} أي: غائرا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته –المؤمنُ– غضبا لربه لكونها غرَّته وأطغته، واطمأن إليها؛ لعله ينيبُ ويراجع رشدَه، ويبصر في أمره.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {وَلَولَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَـاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} إرشـادٌ إلى أنه ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيءٌ مِن مالِه أنْ يقولَ: "ما شاء اللهُ؛ لا قوةَ إلَّا بالله" حتى يُفَوِّضَ الأمرَ إلى الله عزّ وجلّ –لا إلى حَولِه وقُوَّتِه–.

❖ في قوله تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} دلالةٌ على أنّ مُنْكِرَ المعادِ كافرٌ بربِّ العالمين –وإنْ زَعَمَ أنه مُقِرٌّ به–.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} فيه الدُّعاءُ بتَلَفِ مالِ مَن كان مالُه سَبَبَ طُغيانِه وكُفرِه وخُسرانِه؛ خُصوصًا إنْ فَضَّلَ نَفسَه بسَبَبِه على المُؤمِنينَ، وفخَرَ عليهم.

المقطع الثاني عشر من سورة الكهف

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)}

تفسير العلّامة السعدي:

فاستجاب الله دعاءه [للرجل المؤمن حين دعا بهلاك مال الكافر لأنه سبب فتنته] {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} أي: أصابه عذاب أحاط به واستهلكه؛ فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} أي على كثرة نفقاته الدنيوية عليها حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضا على شركه وشره، ولهذا قال: {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}.

{وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} أي: لما نزل العذاب بجنته ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصرا، وكيف ينتصر؟ أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره؛ لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟! ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة –التي أحيط بها– تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه؛ بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يُطغيه، وعاقَبَه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

{هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحا وشكر الله ودعا غيره لذلك؛ تبين وتوضح أن الولايةَ لله الحق، فمن كان مؤمنا به تقيا؛ كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي خير ثواب يُرجى ويُؤمل.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في هذه القصة العظيمة اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نعما دنيوية فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها؛ أن مآلها الانقطاعُ والاضمحلال، وأنه –وإن تمتع بها قليلا–؛ فإنه يحرمها طويلا.
- أن العبد ينبغي له –إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده– أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول: {ما شاء الله، لا قوة إلا بالله} ليكون شاكرا لله متسببا لبقاء نعمته عليه، لقوله: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}.
- الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير لقوله: {إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ}.
- أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا}.
- الحَقُّ اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ}.

المقطع الثالث عشر من سورة الكهف

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)}

تفسير العلّامة السعدي:

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصلا ولمن قام بوراثته بعده تبعا: اضرب للناس مَثَلَ الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار؛ وأن مَثَلَ هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض فيختلط نباتُها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين؛ إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي؛ فأصبحت الأرض غبراء ترابا! قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب! كذلك هذه الدنيا؛ بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصَّل درهَمها ودينارها، واقتطف من أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحُبوره، واستوحش قلبُه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا؛ لا ليستكمل الشهوات! بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفَّق يَعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قَدِّرِي أنك قد مِتِّ –ولا بد أن تموتي–؛ فأيُّ الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة؟ أم العمل لدار أُكُلُها دائمٌ وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟! فبهذا يُعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه، ولهذا أخبر تعالى أن المالَ والبنين زينةُ الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى

للإنسان وينفعه ويسره: الباقياتُ الصالحات، وهذا يشمل جميعَ الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده؛ من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق؛ كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا، فثوابها يبقى ويتضاعف على الآباد، ويُؤَمَّلُ أجرُها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويَجِدَّ في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب اللهُ مَثَلَ الدنيا وحالها واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها؛ يُتمتع به قليلا، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه؛ بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام؛ وهي الباقيات الصالحات.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في تشبيه الحياة الدنيا بالماء أوجه عدة، وهي من بلاغة القرآن الكريم في التشبيه، منها:
  1- أنَّ الماءَ لا يستَقِرُّ في موضعٍ، وكذلك الدُّنيا: لا تبقَى على حال واحدٍ.
  2- أنَّ الماءَ لا يبقَى، فهو يذهَبُ؛ كذلك الدُّنيا تفنَى.
  3- أنَّ الماءَ لا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَدخُلَه ولا يبتَلَّ! كذلك الدنيا: لا يسلَمُ أحَدٌ دخلَها مِن فِتنَتِها وآفَتِها.
  4- أنَّ الماءَ إذا كان بقَدَرٍ معين كان نافِعًا مُنبِتًا، وإذا جاوز المقدارَ صار ضارًّا مُهلِكًا؛ وكذلك الدُّنيا: الكَفافُ منها ينفَعُ، وفُضولُها والمبالغة فيها تضُرُّ.
- في الحديث الصحيح (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: (خُذُوا جُنَّتَكُمْ [الجُنَّة: الوقاية])! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: (لَا، بَلْ مِنَ النَّارِ)، قُلْنَا: مَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدِّمَاتٍ، وَمُعَقِّبَاتٍ، وَمُجَنِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)).

المقطع الرابع عشر من سورة الكهف

{وَيَومَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيبا ثم يجعلها كالعهن المنفوش ثم تضمحل وتتلاشى وتكون هباء منبثا، وتبرز الأرض فتصير قاعا صفصفا؛ لا عوج فيه ولا أمتا [الارتفاع والانخفاض]، ويَحشر اللهُ جميعَ الخلق على تلك الأرض فلا يغادر منهم أحدا، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفَلَوَات وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا خلْقًا جديدا، فيُعرضون عليه صفا ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: {لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة} أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها كما قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ} وقال هنا مخاطبا للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عيانا: {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} أي: أنكرتم الجزاءَ على الأعمال ووعد الله ووعيده، فها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويُشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة

فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} لا يقدرون على إنكاره {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} دلالةٌ على أنّ كلَّ شيءٍ يفعلُه الإنسانُ؛ فإنه مكتوبٌ، فلا تظنّ أنه يضيعُ عليك شيءٌ أبدًا!
- في قوله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِـــرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} دلالةٌ على أنّ دخولَ النار إنما يكونُ بالأعمال.
- في قوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} دلالةٌ على أنّه لن يدخلَ أحدٌ النارَ إلّا بذنبٍ.
- إنّ نفيَ الظلمِ عنه سبحانه في قوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} يتضمنُ كمالَ عَدْلِه
- قَولُ الله تعالى: {وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَـغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَـاهَا} يَدُلُّ على أن الذنوب منها صَغائِرُ ومنها كبائِرُ.

المقطع الخامس عشر من سورة الكهف

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكةَ بالسجود لآدم إكراما وتعظيما، وامتثالا لأمر الله، فامتثلوا ذلك {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} وقال: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}؟! وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}! فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم؛ فكيف تتخذونه وذريته –أي: الشياطين– {أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من وَلاية الشيطان –الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر– عن وَلاية الرحمن؛ الذي كل السعادة والفلاح والسرور في وَلايته.

وفي هذه الآية الحثُّ على اتخاذ الشيطان عدوا، والإغراءُ بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظمُ مِن ظلمِ مَن اتخذ عدوه الحقيقي وليا وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} وقال تعالى: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

{مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين –وهؤلاء المضلين– خلْقَ السماوات والأرض ولا خَلْقَ أنفسهم، أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالِقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير؛ هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يُجعل له شركاء من الشياطين؛ يوالَون ويُطاعون كما يطاع

الله وهم لم يَخلقوا ولم يَشهدوا خلْقًا، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشئون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطا من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلْق والعداوة لربهم؛ فاللائق أن يقصيهم ولا يدنيهم.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسانُ أنْ تتخذَ المُضِلِّينَ عضدًا تنتصرُ بهم! لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذًا لا تعتمدْ على السفهاء، ولا تعتمدْ على أهل الأهواء المنحرفة، لأنه لا يمكن أنْ ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان اللهُ لم يتخذِ المضلين عضدًا؛ فنحن كذلك لا يَليقُ بنا أنْ نتخذَ المضلين عضدًا -لأنهم لا خيرَ فيهم-، وفي هذا: النهيُ عن بطانةِ السوء، وعن مرافقةِ أهلِ السوء، وأنْ يَحذرَ الإنسانُ مِن جلساءِ السوءِ.

❖ لطيفةٌ: في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} فيه نوع من العتاب اللطيف من الرب لعباده؛ وهو: أني عاديتُ إبليسَ إذ لم يسجدْ لأبيكم آدمَ مع ملائكتي؛ فكانت معاداتُه لأجلكم، ثم كان عاقبةُ هذه المعاداة أنْ عقَدْتُم بينكم وبينه عَقْدَ المصالحة والموالاة؟!!

❖ قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} الأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، وإذا وقع ذلك امتِثالًا لأمرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ ولم يكُنْ شِرْكًا! فالسُّجودُ لآدَمَ لولا أمْرُ الله لكان شِرْكًا، لكِنْ لَمَّا كان بأمرِ الله كان طاعةً لله.

❖ وكما أن قَتْلَ النفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً لله.

❖ قَولُ الله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} دليل على أنَّ إبليسَ لم يكُنْ مِن الملائِكةِ.

- قَولُ الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} فيه دَليلٌ على أنَّ المَلَك لا يَعصي مطلقًا، وإنَّما عصى إبليسُ؛ لأنَّه كان جنيًّا في أصلِه.
- في قَولِه تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي} أنَّ الجِنَّ يَتناكَحونَ.

المقطع السادس عشر من سورة الكهف

{وَيَومَ يَقُولُ نَادُوا شُـرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوهُمْ فَلَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَـانُ أَكْثَرَ شَـيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْـتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)}

تفسير العلّامة السعدي:

لما ذكر سبحانه حالَ مَن أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: {نَادُوا شُرَكَائِيَ} -بزعمكم- أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء، أي: نادوهم لينفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد! {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: بين المشركين وشركائهم {مَوْبِقًا} أي، مهلكا، يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}. {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحَقَّتْ كلمةُ العذاب على المجرمين؛ فرأوا جهنمَ قبلَ دخولها فانزعجوا واشتد قلقُهم لظنهم أنهم مواقعوها -وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين-، فأيقنوا أنهم داخلوها {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: معدلا يَعْدِلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعلومه، وأنه صَرَّف فيه مِن كل مَثَل، أي: مِن كل طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثالُ الحلال والحرام، وجزاءُ الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب -اعتقادا وطمأنينة ونورا-، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعدما تبين، ويجادلون بالباطل {لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} ولهذا قال: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك -وعدم الإيمان بالله- إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هذه حالهم! ولهذا قال: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا} أي: ما منع الناس من الإيمان [على الرغم مما جاءهم من الهدى] والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله؛ فلم يمنعهم عدمُ البيان! بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين مِن أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} أي: لم نرسل الرسل عبثا! ولا ليتخذهم الناسُ أربابا! ولا لِيَدْعُوا إلى أنفسهم! بل أرسلناهم يَدعون الناسَ إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويُبَشِّرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسل الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله

إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق} ومن حكمة الله ورحمته أن تقييضه المبطلين المجادلين الحقَ بالباطل [هو] من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبيُّن شواهده وأدلته، وتبين الباطل وفسادِه؛ فبضدها تتبين الأشياء.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} إشارةٌ إلى أنّ كلَّ إنسانٍ يُجادِلُ مِن أجلِ أنْ يُدْحِضَ [يُبْطِل] الحقَّ؛ فإنّ له نصيبًا مِن هذه الآية، يعني أنّ فيه نصيبًا مِن الكفر –والعياذُ بالله–، لأنّ الكافرين هم الذين يُجادلون بالباطل ليدحضوا به الحقَّ.
- في قوله تعالى: {فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} دلالةٌ على أنّ الظنَّ –أحيانًا– يأتي بمعنى اليقين.
- في قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} دلالةٌ على أنّ الرسلَ هم وسائطُ بين الله وبين خلْقِه في تبليغ رسالاتِه وأمْرِه ونهيه ووعْدِه ووعِيْدِه، وليس وسائط في عبوديته!!

المقطع السابع عشر من سورة الكهف

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلما ولا أكبر جرما من عِبدٍ ذُكِّرَ بآيات الله وبُيِّنَ له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب؛ فأعرض عنها فلم يتذكر بما ذُكِّر به، ولم يَرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علَّام الغيوب! فهذا أعظم ظلما مِن المعرض الذي لم تأته آياتُ الله ولم يُذَكَّر بها – وإن كان ظالما–؛ فإنه أخفُّ ظلما من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظمُ ممن ليس كذلك، ولكنَّ اللهَ تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه ورضاه لنفسه حالة الشر مع عِلْمِه بها: أنْ سَدَّ عليه أبوابَ الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات، وإن سمعها؛ فليس في إمكانها الفقهُ الذي يصل إلى القلب! {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} أي: صمما يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع، وإذا كانوا بهذه الحالة؛ فليس لهدايتهم سبيل، {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} لأن الذي يُرجى أن يجيب الداعي للهدى مَن ليس عالما، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عَمُوا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق، وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد عِلْمِه؛ أن يُحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك؛ ما هو أعظمُ مرهب وزاجر عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب لعَجَّل لهم العذابَ، ولكنه

تعالى حليم لا يَعْجَلُ بالعقوبة، بل يُمهل ولا يُهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال: {بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا} أي: لهم موعد يجازَون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة [لا مَفَرَّ] لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سـنته في الأولين والآخرين؛ أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة؛ فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلا؛ فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم: أنزل بهم بأسَه، ولهذا قال: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} أي: بظلمهم لا بظلم منا {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} أي: وقتا مقدرا؛ لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ} حَثٌّ على فِقْهِ القرآنِ؛ وأنه ينبغي للإنسـان أنْ يقرأَ القرآنَ ويَتَعَلَّمَ معناه، كما كان الصـحابةُ –رضـوانُ الله عليهم– لا يتجاوزون عشـرَ آياتٍ حتى يتعلموها؛ وما فيها مِن العِلْم والعملِ.
- قَولُ اللهِ تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} فيه تحذيرٌ مِن الظُّلمِ؛ إذ نتيجتُه الإهلاكُ.
- في قَولِه تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} وجوبُ الحذر من عقوبة الله على العبد المُعْرِض عن آيات الله؛ فإن اللهَ قد يعاقبه بأن يَحْرِمَه فَهْمَ الحق. كما قال تعالى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء: 155] ، أي: طبع وختم على قلوبهم بسبَبِ كُفرِهم، وكقوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: 5].
- في قولِه تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} قد يقولُ قائِلٌ: هنا إشكالٌ: فإنَّ القُرى جمادٌ، والجَمادُ لا يعودُ عليه الضـميرُ بصـيغةِ الجَمعِ، فمثلًا يقال: هذه البيوتُ عَمَّرْناها، ولا يقال: عَمَّرْناهم! فلماذا قال: {أَهْلَكْنَاهُمْ}؟

فالجواب: أنَّ الذي يَهلِكُ هم أهلُ القرى، فالقرى قد يراد بها أهلُها، وقد يُراد بها البِناءُ المجتَمِعُ –وهي جماد–.

المقطع الثامن عشر من سورة الكهف

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)}

تفسير العلّامة السعدي:

يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم؛ أنه قال لفتاه –أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو "يوشع بن نون" الذي نبأه الله بعد ذلك [يعني صار نبيًّا]:– {لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} أي: لا أزال مسافرا وإن طالت علي الشُّقة [المسافة]، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أُوحي إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزمٌ منه جازم؛ فلذلك أمضاه. {فَلَمَّا بَلَغَا} أي: هو وفتاه {مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} وكان معهما حوت [سمكة] يتزودان منه ويأكلان، وقد وُعِدَ [يعني من الله] أنه متى فَقَدَ الحوتَ فثَمَّ ذلك العبدُ الذي قصدتَه، فاتخذ ذلك الحوت سبيلَه، أي: طريقه في البحر سربا وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيا.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمعَ البحرين قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوِز فقط! وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مسَّ التعبِ فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضا فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مسَّ التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة قال له فتاه: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما {فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان} لأنه السبب في ذلك {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربا، ولموسى وفتاه عجبا، فلما قال له الفتى هذا القول – وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فَقَدَ الحوت وجد الخَضِرَ–، فقال موسى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} أي: نطلب {فَارْتَدَّا} أي: رجعا {عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} أي رجعا يقصان أثرَهما إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت، فلما وصلا إليه وجدا عبدا من عبادنا –وهو الخَضِر–، وكان عبدا صالحا؛ لا نبيا على الصحيح [بل الراجح أنه نبيٌّ، كما نبَّه على ذلك الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله]. آتيناه رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد عِلْمُه وحَسُنَ عملُه {وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا} أي: من عندنا عِلْمًا، وكان قد أُعطي من العلم ما لم يُعْطَ موسى؛ وإنْ كان موسى عليه السلام أعلمَ منه بأكثر الأشياء، وخصوصا في العلوم الإيمانية والأصولية لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فَضَّلَهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخَضِرُ قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت –حتى على موسى

عليه السلام-، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك {لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك! ولهذا قال: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟ فقال موسى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحَن به، والعزم شيءٌ ووجود الصبر شيءٌ آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر! فحينئذ قال له الخضر: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارُك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقِفَه على حقيقة الأمر.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ} هذا عرْضٌ لطيفٌ وتواضعٌ، وتأمّلْ هذا الأدبَ مِن موسى عليه الصلاة والسلام -مع أنّ موسى أفضلُ منه {وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [الأحزاب: 69]- ومع ذلك يتلطفُ معه؛ لأنه سوف يأخذُ منه عِلْمًا لا يَعْلَمُه موسى، وفي هذا دليلٌ أنَّ على طالبَ العلمِ أنْ يتلطفَ مع شيخه ومع أستاذه وأنْ يُعاملَه بالإكرام.
- وهذا بخلافِ ما عليه أهلُ الجفاءِ أو الكبرِ؛ لا يُظهِرُ الواحدُ منهم للمعلِّمِ افتقارَه إلى علمِه! بل يدَّعي أنَّه يتعاونُ هو وإيَّاه! بل ربَّما ظنَّ أنَّه يُعَلِّمُ معلِّمَه -وهو جاهلٌ جدًّا-، فالذلُّ للمعلِّمِ، وإظهارُ الحاجةِ إلى تعليمِه هو مِن أنفعِ شيءٍ للمتعلِّمِ.
- في قوله تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} هذا توجيهٌ مِن مُعَلِّمٍ لِمَن يَتَعلَّمُ منه؛ ألَّا يَتعجّلَ في الرَّدِّ على معلِّمِه! بل ينتظرُ حتى يُحْدِثَ له بذلك ذِكْرًا، وهذا مِن آداب المُتَعَلِّم ألَّا يَتَعَجَّلَ في الرَّدِّ حتى يتبينَ الأَمْرَ.

❖ في قوله تعالى –عن موسى وفتاه–: {نَسِيَا حُوتَهُمَا} أضاف سبحانه الفعلَ إليهما –مع أنّ الناسيَ هو الفتى وليس موسى!–، ولكنّ القومَ إذا كانوا في شأنٍ واحدٍ وفي عملٍ واحدٍ؛ نُسِبَ فِعْلُ الواحدِ منهم –أو القائلِ منهم– إلى الجميع، ولهذا يخاطبُ اللهُ عزّ وجلّ بني إسرائيل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة: 50]، وقال سبحانه: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: 55] مع أنهم ما قالوا هذا! لكنْ قاله أجدادُهم.

❖ في قوله تعالى –عن فتى موسى–: {وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} بيانُ أنّ مِن وسوسةِ الشيطان أنه يُشْغِلُ القلبَ بحديثه حتى يُنْسِيَه ما يريدُ أنْ يفعلَه! ولهذا يُضافُ النسيانُ إليه لأنه سببُه.

❖ في قوله تعالى –عن فتى موسى–: {وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} دلالةٌ على أنّ نسيانَ الخيرِ يكونُ مِن الشيطان.

❖ دلَّ قولُه تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} على أنّ العِلْمَ غيرُ مقسومٍ وفق درجات وفضائلِ الرجال عند الله! بل إن الرجل الأقل فضلا ومنزلة –كالخضر– قد يكون عنده علم في شيء أكثرَ من صاحب الفضيلة الأعلى –كموسى عليه السلام، وكالتلميذ الذي يكون أعلم من شيخه في مسألة أو أكثر؛ رغم ان شيخه أعلم منه في غالب الأمور. ومثاله أيضًا قوله تعالى عن هدهد سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: 22].

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} فيه بيان فضيلة العلم، وانه ليس بعيب أن يتعلم العالم أصلًا من غيره ممن عنده علم ولو كان أدنى منه منزلة.

❖ قَال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} موسَى عليه السلامُ رحَل مسافةً طويلةً، ولقِي النَّصَبَ في طلبِ العلمِ، وفي ذلك دَليلٌ على فضيلةِ العلمِ، والحَثِّ على السفر والرِّحلةِ في طَلَبِه، واغتنامِ لِقاءِ الفُضَلاءِ والعُلَماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

❖ قَولُ الله تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} فيه استحبابُ إطعامِ الإنسانِ خادِمَه مِن مأكَلِه، وأكلِهما جميعًا؛ لأنَّ ظاهِرَ قَولِه: {آتِنَا غَدَاءَنَا} بصيغة الجمع: أنَّه أكل هو وخادِمُه جميعًا.

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} فيه المُسافَرةُ مع العالِمِ؛ لاقتباسِ فوائِدِه.

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} فيه إضافةُ العِلمِ وغيرِه مِن الفضائِلِ لله تعالى.

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} فيه أنَّ العِلمَ النَّافِعَ هو العِلمُ المُرشِدُ إلى الخيرِ، فكُلُّ عِلمٍ يكونُ فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطُرقِ الخيرِ، وتحذيرٌ عن طريقِ الشَّرِّ، أو وسيلةٌ لذلك؛ فإنَّه مِن العِلمِ النَّافِعِ، وما سوى ذلك فإمَّا أن يكونَ ضارًّا، أو ليس فيه فائِدةٌ.

❖ قولُ الله تعالى: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا} فيه أنَّ العلم يلزمه صبر على تعلمه، فمن ليس له صبر فإنه لا يتعلم.

❖ السَّبَبُ الكبيرُ لحُصولِ الصَّبرِ على أمرٍ ما؛ هو إحاطةُ الإنسانِ عِلمًا وخِبرةً بذلك الأمرِ الذي أُمِرَ بالصَّبرِ عليه، وإلَّا فالذي لا يَدريه، أو لا يَدري غايتَه ولا نتيجَتَه، ولا فائِدَتَه وثمَرتَه؛ ليس عنده سَبَبُ الصبرِ عليه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الخَضِرِ لموسى عليه السَّلامُ: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}.

❖ نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} تعليق أفعالنا المُستقبليَّةِ بمشيئة الله تعالى، وألَّا يقولَ الإنسانُ للشَّيءِ: إني فاعِلٌ ذلك في المُستَقبلِ؛ إلَّا أن يقولَ: (إنْ شاء الله).

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} فيه الأمرُ بالتَّأنِّي والتثبُّت، وعَدَمُ المبادرةِ إلى الحُكمِ على الشَّيءِ حتى يُعرَفَ ما يُرادُ منه وما هو المَقصودُ.

❖ في قَولِه تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} هذا مِن آدابِ المُتَعلِّم؛ ألَّا يَتعَجَّلَ في الرَّدِّ على معلمه حتى يتبيَّنَ الأمْر.

❖ في قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} أن الأنبياءَ بشرٌ؛ فقد يحصل منهم النسيان.

❖ قَولُ الله تعالى: {قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا} أن أخذ الزاد في السفر لا ينافي التوكل!

❖ يقولُ الله تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} فيه جوازُ إخبارِ الإنسانِ عَمَّا هو مِن مُقتضى طبيعةِ النَّفسِ مِن نَصَبٍ أو جُوعٍ أو عَطَشٍ، إذا لم يكُنْ على وجهِ التسَخُّطِ، وكان صِدقًا.

❖ في قَولِه تعالى: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا} دَلالةٌ على أنَّ المستحَبَّ في الاستثناءِ –وهو قول: إن شاء الله– أن يكونَ في ابتداءِ الكلامِ؛ لأنَّ موسى ابتدأَ به، وكقوله: {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} [البقرة: 70].

❖ قولُه تعالى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا} فيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ واقعةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى.

❖ في قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}أن العلم الذي يُعَلِّمُه الله لعباده نوعان:

1– عِلم مُكتسب، يدركه العبد بجِدّه واجتهاده.

2– عِلم لَدُنِّيّ، يَهبه الله لمن يَمُنُّ عليه مِن عباده –كالأنبياء والرسل–.

❖ في الحديث الصحيح ((إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ [الْفَرْوَةُ: الْحَشِيشُ الْأَبْيَضُ وَمَا يُشْبِهُهُ] فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ)).

المقطع التاسع عشر من سورة الكهف

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)}

تفسير العلّامة السعدي:

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا} أي: اقتلع الخضر منها لوحا، وكان له مقصود في ذلك سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام! لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسببٌ لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} أي: عظيما شنيعا، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} أي: فوقع كما أخبرتك! وكان هذا من موسى نسيانا فقال: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} أي: لا تعسر عليَّ الأمرَ، واسمح لي؛ فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى –عن موسى–: {قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} دلالةٌ على أنّ قلوبَ المؤمنين مجبولةٌ على إنكارِ المنكَر وعدم الصبر على احتماله، لأنّ موسى صلى الله عليه وَعَدَ الخضرَ أنْ يَصْبِرَ على ما يراه منه؛ فلمّا رأى ما رأى أنكره عليه.
- قَولُ اللهِ تعالى: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يأخُذَ مِن أخلاقِ النَّاسِ ومُعامَلاتِهم العَفوَ والمتيسر منها، وما سَمَحَت به أنفُسُهم، ولا ينبغي له أن يُكَلِّفَهم ما لا يُطيقونَ، أو يَشُقَّ عليهم ويُرهِقَهم؛ فإنَّ هذا مَدعاةٌ إلى النُّفورِ منه والسَّآمةِ.

- قَولُ اللهِ تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ} فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ في غيرِ الحالةِ التي يُخافُ منها –وهي حالة الاضطراب التي يُخشى منها الغرق–.
- قولُ اللهِ تعالى: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} فيه أنَّ النَّاسيَ غيرُ مُؤاخَذٍ بنِسيانِه؛ لا في حقِّ اللهِ.

المقطع العشرون من سورة الكهف

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)}

تفسير العلّامة السعدي:

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا} أي: صغيرا {فَقَتَلَهُ} الخضر، فاشتد بموسى الغضب وأخذته الحمية الدينية حين قتل غلاما صغيرا لم يذنب! {قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} وأيُّ منكَر مثلُ قتْلِ الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحد؟! وكانت الأُولى من موسى نسيانا [وقت خرق السفينة]، وهذه غير نسيان، ولكن عدمُ صبر، فقال له الخضر معاتبا ومذكرا: {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}؟! فقال له موسى: {إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ} بعد هذه المرة {فَلَا تُصَاحِبْنِي} أي: فأنت معذور بذلك وبترك صحبتي {قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا} أي: أَعْذَرْت مني [يعني ليس عليك ملامة ولا عتب]، ولم تقصر.

من هدايات الآيات الكريمة:

- قَولُ الله تعالى: {قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} فيه أنَّ القَتلَ قِصاصًا غيرُ مُنكَرٍ.
- قَولُ الله تعالى: {قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} فيه أنَّ القَتلَ مِن أكبَرِ الذُّنوبِ.
- قَولُ الله تعالى: {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا} فيه أنَّ للثَّلاثِ اعتِبارًا في التَّكرارِ ونَحوِه.

المقطع الحادي والعشرون من سورة الكهف

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)}

تفسير العلّامة السعدي:

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} أي: استضافاهم فلم يضيفوهما! {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ} أي: قد عاب واستهدم {فَأَقَامَهُ} الخضر أي: بناه وأعاده جديدا، فقال له موسى: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا} أي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرة، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يَفِ موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضرُ منه [يعني بلغه بأنه قد وصل إلى آخر حده في المسامحة على السؤال]، فقال له: {هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} فإنك شرطتَ ذلك على نفسك فلم يبق الآن عذر ولا موضع للصحبة، {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} أي: سأخبرك بما أنكرتَ عليَّ، وأنبئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا} دلالةٌ على أنّه للمسافر أنْ يطلب الطعام ممن ينزلُ به إذا لم يجد ما يأكلُه، ولا يُعَدُّ هذا من التسول! وهذا لأنَّ الضيافة واجبة، وهي حق للضيف.
- ولكنَّ هذا الأمرَ إنما يكون في حال عدم وجود الفنادق والمطاعم العامة وما شابه، مثل القرى والبوادي. والله أعلم.
- في قوله تعالى: {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} أن الأنبياءَ بشرٌ؛ فقد يحصل منهم الجوع والعطش، وفيه دلالة على عدم جواز دعائهم والاستغاثة بهم؛ لأنهم ضعفاء وفقراء، وقد نهى الله تعالى عن دعاء غيره، فهو من الشرك الذي لا يغفره الله.

المقطع الثاني والعشرون من سورة الكهف

{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)}

تفسير العلّامة السعدي:

{أَمَّا السَّفِينَةُ} التي خرقتُها {فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}، يقتضي ذلك الرقةَ عليهم والرأفة بهم، {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} أي: كان مرورُهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه –ما فيها عيب– غصبها وأخذها ظلما! فأردتُ أن أخرقها ليكون فيها عيب فتسلم من ذلك الظالم، {وَأَمَّا الْغُلَامُ} الذي قتلتُه {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} وكان ذلك الغلام قد قُدِّرَ عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانا وكفرا، أي: لَحَمَلَهما على الطغيان والكفر – إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يحضهما على ذلك–، أي: فقتلتُه لاطلاعي على ذلك؛ سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟! وهو وإن كان فيه إساءة إليهما وقطْعٌ لذريتهما؛ فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} أي: ولدا صالحا، زكيا، واصلا لرَحِمِه؛ فإن الغلام الذي قُتِل لو بلغ لعَقَّهما أشدَّ العقوق بحَمْلِهما على الكفر والطغيان، {وَأَمَّا الْجِدَارُ} الذي أقمتُه {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} أي: حالُهما تقتضي الرأفةَ بهما ورحمتهما لكونهما صغيرين عَدِمَا أباهما، وحَفِظَهما اللهُ أيضا بصلاح والدهما، {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا} أي: فلهذا هدمتُ الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجانا،

{رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} أي: هذا الذي فعلتُه رحمةٌ من الله، آتاها الله عبدَه الخضر {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}! أي: ما أتيت شيئا من قبل نفسي ومجرد إرادتي! وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، {ذَلِكَ} الذي فسرتُه لك {تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله، فمنها فضيلة العلم، والرحلةُ في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النَّصَب في طلبه، وتركَ القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

من هدايات الآيات الكريمة:

- قَولُ الله تعالى: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} يدُلُّ على أنَّ العبدَ الصَّالحَ قدْ يحفظُه الله تعالى بصلاحِه بعدَ موته في ذُرِّيَّتِه.
- قولُ الله تعالى: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} أنَّ الله تعالى قد يُقدِّرُ على العبدِ أمورًا يَكرَهُها جِدًّا؛ ولكنها صلاحُ دِينِه -كما في قَضِيَّةِ الغُلامِ-، أو هي صَلاحُ دُنياه -كما في قَضِيَّةِ السَّفينةِ-، فأراهم سبحانه نَموذجًا مِن لُطفِه وكَرَمِه؛ لِيَعرِفوا ويَرضَوا غايةَ الرِّضا بأقدارِه المكروهةِ، فقَضاءُ اللهِ واختيارُه للمُؤمِنِ خَيرٌ مِن قَضائِه واختياره لِنَفسِه.
- قَولُ الله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} فيه أنَّ خِدمةَ الصَّالِحِينَ -أو من يتعَلَّقُ بهم- أفضَلُ مِن غَيرِها؛ لأنَّه عَلَّلَ استخراجَ كَنزِهما وإقامةَ جِدارِهما بأنَّ أباهما صالِحٌ.
- قَولُ الله تعالى: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} فيه استِعمالُ الأدَبِ مع الله تعالى في الألفاظِ؛ فإنَّ الخَضِرَ أضاف عَيبَ السَّفينةِ إلى نَفسِه، وأمَّا الخَيرُ فأضافه إلى اللهِ تعالى فقال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، وكما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} مع أنَّ الكُلَّ هو بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} فيه أنَّ المسكينَ قد يكونُ له مالٌ ولكنه لا يَبلُغُ كِفايتَه؛ فيبقى مع ذلك وصفه بأنه مسكين.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} فيه دَليلٌ على أنَّ عَمَلَ الإنسانِ في مالِ غَيرِه إذا كان على وَجهِ المَصلَحةِ وإزالةِ المَفسَدةِ؛ أنَّه يجوزُ ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترَتَّبَ على عَمَلِه إتلافُ بَعضِ مالِ هذا الغَيرِ، كما خَرَق الخَضِرُ السَّفينةَ؛ لِتَعيبَ فتَسلَمَ مِن غَصبِ المَلِك الظَّالِمِ.

❖ فعلى هذا لو وقَعَ حَرقٌ أو غَرَقٌ أو نحوُهما في دار إنسانٍ أو مالِه، ولَزِمَ إتلافُ بَعضِ المالِ، أو هَدمُ بعضِ الدارِ –مما فيه سَلامةٌ للباقي–؛ فإنه يجوز ذلك؛ حِفظًا لمالِ الغَيرِ.

❖ وكذلك لو أراد ظالِمٌ أخْذَ مالِ الغَيرِ، ودفَعَ إليه إنسانٌ بعضَ المالِ؛ افتداءً للباقي جاز، ولو مِن غَيرِ إذنٍ.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} فيه دليلٌ على القاعدة الفقهية: أنَّه يُدفَعُ الشَّرُّ الكبيرُ بارتِكابِ الشَّرِّ الصَّغيرِ، فإنَّ قَتلَ الغُلامِ شَرٌّ، ولكِنَّ بقاءَه حتى يَفتِنَ أبوَيه عن دينِهما أعظَمُ شَرًّا منه. ومنه يؤخذُ فائدةٌ عظيمةٌ وهي: "إتلافُ بعضِ الشيءِ لإصلاحِ باقيه"، والأطباءُ يعملون به، تجدُه يأخذُ مثلًا مِن جلد الفَخِذِ قطعةً؛ فيُصلِحُ بها عيبًا في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} فيه دليلٌ على إطلاقِ اسمِ القريةِ على المدينةِ، وجوازِ تَسميةِ إحداهما بالأُخرى؛ لأنَّه قال أولًا: {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ}، وقال هاهنا: {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ}.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} دليل على نُبُوَّةِ الخَضِر؛ لأنَّه يقتضي أنَّه أُوحِيَ إليه، ويَنبغي اعتقادُ كونِه نبيًّا؛ لئلَّا يحتج بذلك أهلُ الباطلِ في دَعْواهم أنَّ الأولياء أفضلُ من الأنبياء!

❖ يؤخذُ مِن قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} أنّه يجوز لولي الأمر أن يَقْتلَ الكافرُ خوفًا مِن أنْ يَنْشُرَ كُفْرَهُ في الناسِ.

❖ في قوله تعالى: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الأمرُ بالتأني والتثبت، وعدمُ المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

المقطع الثالث والعشرون من سورة الكهف

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)}

تفسير العلّامة السعدي:

كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: {سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب، أي: سأتلوا عليكم من أحواله ما يُتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله فلم يَتْلُه عليهم. {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ} أي: مَلَّكه الله تعالى ومَكَّنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له، {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة [للمطلوب] ما به يَستعين على قَهْر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وقد عَمِلَ بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} أي: استعملها على وجهها، وليس كل مَن عنده شيء من الأسباب يَسْلُكه! ولا كلُّ أحدٍ يكون قادرا على السبب! فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي مع العمل به؛ حصل المقصود، وإن عُدِمَا أو أحدُهما؛ لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا لا يَسعنا غيرُ السكوت عنها، وعدمُ الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة -داخلية وخارجية-، بها صار له جند عظيم، ذو عَدَد وعُدَد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغربَ الشمس حتى رأى الشمسَ -في مرأى العين- كأنها تغرب في عين حمئة -أي: سوداء-، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماءٌ؛ رآها تغرب في نفس الماء -وإن كانت في غاية الارتفاع-، ووجد عندها -أي: عند مغربها- قوما، {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} أي: إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أَسْرٍ ونحوه، وإما أن تُحسن إليهم. فخُيِّرَ بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم كفارٌ أو فساق، أو فيهم شيء من

ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غيرَ فساق لم يُرَخَّص في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدحَ والثناء لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: {أَمَّا مَنْ ظَلَمَ} بالكفر {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا} أي: تحصل له العقوبتان -عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة-، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى} أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة، {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} أي: وسنحسن إليه ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالِمين؛ حيث وافق مرضاةَ الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} دلالةٌ على أنّه لا حرجَ أنّ الإنسانَ يُخْبِرُ عن الشيء الذي تراه عيناه بحسب ما رآه، فمعلومٌ أنّ الشمسَ تغربُ في هذه العين الحمئة حسب رؤية الإنسان، وإلاّ فهي أكبرُ مِن الأرض، وأكبرُ من هذه العين الحمئة!
- قوله تعالى: {أَمَّا مَنْ ظَلَمَ} الظاهرُ -واللهُ أعلم- أنّ المرادَ به الشركُ؛ لأنه قال: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}.
- اختُلف في سبب تلقيبه بذي القرنين، فقيل:

1- لأنه طاف قرني الدنيا -يعني جانبيها شرقها وغربها-.

2- أو لأنه كان له قرنان -أي ضفيرتان-.

3- أو لأنه مَلَك الرومَ وفارسَ.

4- أو بسبب شجاعته، كما يسمى الشجاعُ كبشًا لأنه ينطح أقرانه.

المقطع الرابع والعشرون من سورة الكهف

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91)}

تفسير العلّامة السعدي:

أي لما وصل إلى مغرب الشمس كرَّ راجعا قاصدا مَطْلِعَها، متبعا للأسباب التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس فـ {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا} أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم سِتر من الشمس، إما لعدم استعدادهم في المساكن –وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم تمدنهم–، وإما لكون الشمس دائمةً عندهم لا تغرب عنهم غروبا يُذكر –كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا الجنوبي–، فوصل إلى موضع انقطع عنه عِلْمُ أهلِ الأرض –فضلا عن وصولهم إليه إياه بأبدانهم– ، ومع هذا؛ فكل هذا بتقدير الله له وعِلْمِه به، ولهذا قال: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعِلْمُنا معه حيثما توجه وسار.

المقطع الخامس والعشرون من سورة الكهف

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)}

تفسير العلّامة السعدي:

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} قال المفسرون: ذهب متوجها من المشرق قاصدا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان؛ سدا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وَجَدَ مِن دون السدين قوما {قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} لِعُجْمَةِ ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى اللهُ ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فَقِهَ به ألسنةَ أولئك القوم وفقَّهَهُم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضررَ يأجوجَ ومأجوجَ -وهما أمتان عظيمتان من بني آدم-، فقالوا: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} بالقتل وأخْذِ الأموال وغير ذلك، {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} أي جُعْلًا [مكافأة] {عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}، ودلَّ ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدارَ ذي القرنين عليه؛ فبذلوا له أجرةً ليفعل ذلك، وذكروا له السببَ الداعي، وهو: إفسادهم [يأجوج ومأجوج] في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصْدُه الإصلاح فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربَّه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أي: [خيرٌ] مما تبذلون لي وتُعطوني، وإنما أطلب منكم أنْ تُعينوني بقوة منكم بأيديكم {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} أي:

مانعا مِن عُبورهم عليكم، {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} أي: قِطَع الحديد، فأعطَوه ذلك، {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} أي: الجبلين اللذين بُني بينهما السدُّ {قَالَ انْفُخُوا} النارَ أي: أوقدوها إيقادا عظيما، واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاسُ الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} أي: نحاسا مذابا فأُفْرِغ عليه القطر، فاسْتَحْكَمَ السدُّ استحكاما هائلا، وامتنع مَن وراءه مِن الناس مِن ضرر يأجوج ومأجوج، {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} أي: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته. فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل أضاف النعمةَ إلى موليها وقال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} أي: مِن فضله وإحسانه عليَّ، وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي} أي: لخروج يأجوج ومأجوج {جَعَلَهُ} أي: ذلك السدَّ المحكم المتقن {دَكَّاءَ} أي: دَكَّهُ فانهدمَ واستوى هو والأرض {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

من هدايات الآيات الكريمة:

- في قَولِه تعالى: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أنَّ على المَلكِ التعفُّفَ عن أموالِ رعيَّتِه، والزُّهدَ في أخذِ أُجرةٍ في مُقابلةِ عَمَلٍ يأتيه –طالما عنده ما أغناه اللهُ به–، ففي ذلك حِفظُ كرامتِه، وزيادةُ الشَّغَفِ بمحبَّتِه، كما امتنع ذو القرنين عن الأجرة تفضُّلًا وتكرُّمًا.
- في قَولِه تعالى: {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} مشاركة المَلِكِ للعمال في العمل، والإشراف بنفسِه إذا اقتضى الأمر، وفي هذا تنشيط لهمة العاملين.
- قَوله تعالى: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} هذه حال الخلفاء [والناس] الصالحين؛ إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرُهم وإقرارُهم واعترافهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرشُ ملكة سبأ –مع البعد العظيم– قال: {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}، بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإن النعم الكبار، تزيدهم أشرًا [الفرحُ والكِبْر] وبَطَرًا، كما قال قارون –لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة– قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}!

❖ قال الله تعالى: {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَـــدًّا} في هذه الآيةِ دليلٌ على اتِّخاذِ السُّجونِ وحَبسِ أهلِ الفَسادِ فيها، ومَنعِهم من التصَرُّفِ لِما يُريدونَه، ولا يُترَكونَ وما هم عليه

❖ قَولُه تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} فيه دلالة على خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ عند قُرْبِ قيام السَّاعةِ.

❖ وفي الحديث الصـــحيح: ((يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ [رئيســهم]: ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ [الوقت الذي يأذن اللهُ بخروجهم فيه] وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ؛ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى [يعني أنه قال: إنْ شـــاء الله]، قَالَ: فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَخْرِقُونَهُ؛ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ)).

المقطع السادس والعشرون من سورة الكهف

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102)}

تفسير العلّامة السعدي:

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} يحتمل أن الضميرَ [في كلمة بعضهم] يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس –مِن كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها– يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ}، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: {ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا} أي: إذا نَفخ إسرافيلُ في الصُّور [البوق] أعاد اللهُ الأرواحَ إلى الأجساد، ثم حشَرَهم وجمَعَهم لموقف القيامة –الأولين منهم والأخِرين، والكافرين والمؤمنين– ليُسألوا ويُحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون –على اختلافهم– فإن جهنمَ جزاؤهم خالدين فيها أبدا، ولهذا قال: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} كما قال تعالى: {وبرزت الجحيم للغاوين} أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا {كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي} أي: مُعْرِضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}، {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} أي: لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان؛ لِبُغْضِهم القرآنَ والرسول! فإن المبْغِضَ لا يستطيع أنْ يُلقي سمْعَه إلى كلام مَن أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرقُ

العلم والخير؛ فليس لهم سمعٌ ولا بصـــر ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رســـلَه؛ فاستحقوا جهنم وساءت مصيرا.

أَفَحَسِـــبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} وهذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشـــركين الكافرين –الذين اتخذوا بعضَ الأنبياء والأولياء– شـــركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ينجونهم من عذاب الله وينيلونهم ثوابه؛ وهم قد كفروا بالله وبرســـله! يقول الله لهم على وجه الاســـتفهام والإنكار –المتقرر بطلانُه في العقول–: {أَفَحَسِـــبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ} أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليُّ الله معاديًا لله أبدا! فإن الأولياءَ موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابها لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ}، فمَن زعم أنه يتخذ وليَّ اللهِ وليًا له وهو معادٍ لله! فهو كاذب.

ويحتمل –وهو الظاهر– أن المعنى: أفحســـب الكفار بالله، المنابذون لرســـله؛ أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصـروهم وينفعوهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟! هذا حسـبان باطل، وظنٌّ فاسـد؛ فإن جميعَ المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضـر شـيءٌ، ويكون هذا كقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا}، {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} ونحو ذلك من الآيات التي يَذكر اللهُ فيها أنَّ المتخذَ من دونه وليا ينصـره ويواليه: [هو] ضـالٌّ خائبُ الرجاء، غيرُ نائلٍ لبعض مقصوده، {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} أي ضيافة وقِرَى [القِرَى: ما يُجَهَّز للضيف عند قدومه]، فبئس النُّزُلُ نُزُلُهم، وبِئْسَتْ جهنمُ ضيافتَهم.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ مِن الحِكَمِ في إخبار اللهِ عزّ وجلّ بأنه: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} أنْ يُصْلِحَ الإنسانُ ما بينه وبين اللهِ؛ وأنْ يَخافَ مِن هذا اليوم؛ وأنْ يَستعدَّ له؛ وأنْ يُصَوِّرَ نفسَه وكأنه تحتَ قدميه، كما قال أبو بكر الصِّديقُ رضي الله عنه: (كلُّ امرئٍ مُصَبّحٌ في أهله ... والموتُ أدنى مِن شِرَاكِ نَعْلِهِ)! فتصَوَّرْ هذا؛ وتصوَّرْ أنّه ليس بينك وبينه إلَّا أنْ تَخْرُجَ هذه الرُّوحُ مِن الجسد، وحينئذ ينتهي كلُّ شيءٍ

❖ النَّارُ تُعرَضُ على الكافرين ويُعرَضونَ عليها؛ لأنها تُقرَّبُ إليهم ويُقرَّبونَ إليها، كما قال تعالى في عَرضِها عليهم هنا: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا}، وقال في عَرضِهم عليها: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}.

المقطع السابع والعشرون من سورة الكهف

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)}

تفسير العلّامة السعدي:

أي: قل يا محمد، للناس -على وجه التحذير والإنذار-: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق؟ {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: بَطَل واضمحل كلُّ ما عملوه مِن عمل؛ يحسبون أنهم محسنون في صنعه! فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة وأنها محادَّة لله ورسله ومعاداة؟! فمَن هم هؤلاء الذين خسرتْ أعمالُهم؟ ،ف {فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين}، {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية [المشاهَدة]، الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، {فَحَبِطَتْ} [بَطَلَتْ] بسبب ذلك {أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} لأن الوزن فائدتُه مقابلةُ الحسنات بالسيئات، والنظرُ في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها -وهو الإيمان-، كما قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}، لكنْ تُعَدُّ أعمالُهم وتحصى، ويُقَرَّرُون بها، ويُخزون بها على رءوس الأشهاد، ثم يُعذبون عليها، ولهذا قال: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ} أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، {وَزْنًا} لحقارتهم وخِسَّتِهم بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله هزوا يستهزئون بها، ويسخرون منها، مع أن الواجبَ في آيات الله ورسله: الإيمانُ التام بها، والتعظيم لها، والقيامُ بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية؛ فانعكس أمرهم، وتعسوا، وانتكسوا في العذاب.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} إلى قوله سبحانه: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} دلالةٌ على أنّ الإنسانَ يُوزَنُ مع عمَلِه، وقد دلت النصوص الشرعية بعامة أنَّ العاملَ، وعمَلَه، وصَحيفةَ عَمَلِه: كُلُّ ذلك يُوزَنُ.

❖ قَولُ اللهِ تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} فيه دَلالةٌ على أنَّ مِن النَّاسِ مَن يعمَلُ العَمَلَ وهو يَظُنُّ أنَّه مُحسِنٌ وقد بَطَلَ سَعيُه! والذي يُوجِبُ إحباطَ السَّعيِ إمَّا فَسادُ العقيدة أو الرياء.

❖ جاء في الأثر الصحيح عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: "سَأَلْتُ أَبِي [سعد بن أبي وقاص]: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا} هُمْ الْحَرُورِيَّةُ؟ [الحرورية: قومٌ من الخوارج] قَالَ: لَا. هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى".

❖ في الحديث الصحيح: ((إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ! اقْرَءُوا: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا})).

المقطع الثامن والعشرون من سورة الكهف

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُلْ لَو كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـــرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)}

تفسير العلّامة السعدي:

أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصـالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصـفُ جميعَ الدين –عقائده، وأعماله، أصـــوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة–، فهؤلاء –على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح –لهم جنات الفردوس.

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة وأوسـطها وأفضـلها، وأن هذا الثواب لِمَن كَمُلَ فيه الإيمانُ والعملُ الصـالح، وللأنبياء والمقربين، ويحتمل أنْ يراد بها جميعَ منازل الجنان؛ فيشـمل هذا الثواب جميعَ طبقات أهل الإيمان من المقربين، والأبرار، والمقتصدين [الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات، ولكن لم يتسابقوا في مزيد الأعمال والطاعات]، كلٌّ بحسب حاله، وهذا أَولى المعنيين لعمومه، ولِذكر الجنة بلفظ الجمع المضافِ إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزُلٌ وضيافةٌ لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأيُّ ضيافةٍ أجلُّ وأكبر وأعظم من هذه الضيافة المحتوية على كل نعيم للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحِسَان، والخدم والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحســي والمعنوي، والنعمة الدائمة؟! وأعلى ذلك وأفضـلُه وأجَلُّه: التنعمُ بالقرب مِن

الرحمن ونيل رضاه؛ الذي هو أكبرُ نعيم الجنان، والتمتعُ برؤية وجهه الكريم وسماع كلام الرءوف الرحيم. فلله تلك الضيافةُ؛ ما أجَلَّها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم مِن أنْ يحيط بها وصفُ أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو عَلِمَ العبادُ بعضَ ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم لطارتْ إليها قلوبُهم بالأشواق، ولتقطعتْ أرواحُهم مِن أَلَمِ الفِراق، ولساروا إليها زرافات [جماعات] ووِحدانا، ولم يؤْثِرُوا عليها دنيا فانية، ولَذَّات منغصة متلاشية! ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة يقابل كلَّ لحظةٍ منها من النعيم مِن الحقب [الأزمنة] آلافًا مؤلفة، ولكنَّ الغفلةَ شملت، والإيمان ضَعُفَ، والعلمُ قَلَّ، والإرادةُ نفدتْ؛ فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا} هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيمَ الكامل، ومِن تمامه أنه لا ينقطع {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} أي: تحولا ولا انتقالا، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويَسُرُّهم ويفرحهم، ولا يرون نعيما فوق ما هم فيه.

{قُلْ} أي: قل لهم مخبرا عن عظمة الباري وسَعة صفاته، وأنها لا يحيط العبادُ بشيء منها: {لَوْ كَانَ الْبَحْرُ} أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم {مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي} [المداد: هو الحبر الذي يُكتب به] أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان والبراري: أقلامًا {لَنَفِدَ الْبَحْرُ} وتكسرت الأقلام {قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفي الآية الأخرى: {ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم} وهذا مِن باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضيةٌ منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاتُه غير مخلوقة، ولا لها حدَّ ولا منتهى، فأيُّ سَعة وعظمة تصورتْها القلوبُ؛ فاللهُ فوق ذلك، وهكذا سائرُ صفات الله تعالى -كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته-، فلو جُمِعَ عِلْمُ الخلائق مِن الأولين والآخرين -أهلِ السماوات وأهل الأرض- لكان بالنسبة إلى عِلْمِ العظيم: أقلَّ مِن نسبة عصفور وقع على حافة البحر فأخذ بمنقاره مِن البحر بالنسبة: للبحر وعظمته؟! ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة؛ وأن إلى ربك المنتهى.

أي: {قُلْ} يا محمد للكفار وغيرِهم: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} أي: لست بإلهٍ، ولا لي شركة في الملك، ولا عِلْمٌ بالغيب، ولا عندي خزائنُ الله، {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} عبدٌ من عبيد ربي، {يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: فُضِّلْتُ عليكم بالوحي الذي يوحيه الله إليَّ: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحدَ يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} وهو الموافق لشرع الله؛ من واجب ومستحب، {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} أي: لا يرائي بعمله! بل يعمله خالصا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما مَن عدا ذلك؛ فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القربُ مِن مولاه ونيل رضاه.

من هدايات الآيات الكريمة:

❖ في قَولِه تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} أنَّه لا بدَّ مِن مُلاقاةِ الله عزَّ وجلَّ، والنصوصُ في هذا كثيرةٌ، كقَولِه تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق: 6]، فيُؤخَذُ مِن ذلك أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَستَعِدَّ لمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعرِفَ كيف يُلاقي اللهَ؛ هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضيَّةٍ عندَ الله عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففتِّشْ نفسَك واعرِفْ ما أنت عليه.

❖ قال تعالى: {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} دفعًا لِما قد يُتوَهَّمُ؛ مِن أنَّ الأمرَ -كما في الدُّنيا- مِن أنَّ كُلَّ أحدٍ في أيِّ نعيمٍ كان: يشتهي ما هو أعلى منه؛ لأنَّ طولَ الإقامةِ قد يُورِثُ الملل! بل هم في غايةِ الرِّضا بها؛ لِما فيها من أنواعِ الملاذِّ التي لا حَصرَ لها ولا انقِضاءَ، لا يشتهي أحدٌ منهم غيرَ ما عنده؛ سواءٌ كان في الفردوسِ أو فيما دونَه.

❖ في قوله تعالى: {قُلْ لَو كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} فَرَّقَ سبحانه بين المِدَادِ -الذي يُكْتَبُ به كلماتُه-؛ وبين كلماتِه، فالبحرُ وغيرُه مِن المِدَادِ -الذي يُكْتَبُ به الكلماتُ- مخلوقٌ؛ وكلماتُ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ.

❖ في قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} دلالةٌ على أنّه لا بدّ في العمل شرطان كي يكون مقبولًا عند الله:

1- أنْ يكونَ مشروعًا مأمورًا به -وهو العملُ الصالحُ-، حيث إنه يوافق السنة النبوية.

2- أنْ يُقصدَ به وجهُ الله، فلو كان فيه شرك أو رياء؛ فإن العمل يكون باطلًا.

❖ في الحديث الصحيح: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ؛ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)).

❖ الشركُ بالله أخطرُ وأخوفُ من المسيح الدَّجَّال!!

في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)؟ فَقُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي؛ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)).

المحتويات

من فضائل السورة وخصائصها: 2
مِن أهَمّ موضوعات السورة: 3
المقطع الأول من سورة الكهف 4
تفسير العلّامة السعدي: 4
من هدايات الآيات الكريمة: 6
المقطع الثاني من سورة الكهف 7
تفسير العلّامة السعدي: 7
من هدايات الآيات الكريمة: 8
المقطع الثالث من سورة الكهف 9
تفسير العلّامة السعدي: 9
من هدايات الآيات الكريمة: 10
المقطع الرابع من سورة الكهف 11
تفسير العلّامة السعدي: 11
من هدايات الآيات الكريمة: 12
المقطع الخامس من سورة الكهف 13
تفسير العلّامة السعدي: 13
من هدايات الآيات الكريمة: 15
المقطع السادس من سورة الكهف 16
تفسير العلّامة السعدي: 16
من هدايات الآيات الكريمة: 17
المقطع السابع من سورة الكهف 18
تفسير العلّامة السعدي: 18
من هدايات الآيات الكريمة: 21
المقطع الثامن من سورة الكهف 24
تفسير العلّامة السعدي: 24
من هدايات الآيات الكريمة: 27
المقطع التاسع من سورة الكهف 29
تفسير العلّامة السعدي: 29

من هدايات الآيات الكريمة: 30
المقطع العاشر من سورة الكهف 31
تفسير العلّامة السعدي: 31
المقطع الحادي عشر من سورة الكهف 33
تفسير العلّامة السعدي: 33
من هدايات الآيات الكريمة: 35
المقطع الثاني عشر من سورة الكهف 36
من هدايات الآيات الكريمة: 37
المقطع الثالث عشر من سورة الكهف 38
تفسير العلّامة السعدي: 38
من هدايات الآيات الكريمة: 39
المقطع الرابع عشر من سورة الكهف 40
تفسير العلّامة السعدي: 40
من هدايات الآيات الكريمة: 41
المقطع الخامس عشر من سورة الكهف 42
تفسير العلّامة السعدي: 42
من هدايات الآيات الكريمة: 43
المقطع السادس عشر من سورة الكهف 45
تفسير العلّامة السعدي: 45
من هدايات الآيات الكريمة: 47
المقطع السابع عشر من سورة الكهف 48
تفسير العلّامة السعدي: 48
من هدايات الآيات الكريمة: 49
المقطع الثامن عشر من سورة الكهف 50
تفسير العلّامة السعدي: 50
من هدايات الآيات الكريمة: 52
المقطع التاسع عشر من سورة الكهف 56
تفسير العلّامة السعدي: 56
من هدايات الآيات الكريمة: 56

المقطع العشرون من سورة الكهف 58
تفسير العلّامة السعدي: 58
من هدايات الآيات الكريمة: 58
المقطع الحادي والعشرون من سورة الكهف 59
تفسير العلّامة السعدي: 59
من هدايات الآيات الكريمة: 59
المقطع الثاني والعشرون من سورة الكهف 60
تفسير العلّامة السعدي: 60
من هدايات الآيات الكريمة: 61
المقطع الثالث والعشرون من سورة الكهف 64
تفسير العلّامة السعدي: 64
من هدايات الآيات الكريمة: 65
المقطع الرابع والعشرون من سورة الكهف 66
المقطع الخامس والعشرون من سورة الكهف 67
من هدايات الآيات الكريمة: 68
المقطع السادس والعشرون من سورة الكهف 70
تفسير العلّامة السعدي: 70
من هدايات الآيات الكريمة: 72
المقطع السابع والعشرون من سورة الكهف 73
تفسير العلّامة السعدي: 73
من هدايات الآيات الكريمة: 74
المقطع الثامن والعشرون من سورة الكهف 75
تفسير العلّامة السعدي: 75
من هدايات الآيات الكريمة: 77